

باب العقائد

﴿ الايمان يزيد وينقص ﴾

جاء في شرح عقيدة السفاريني ان سلف الامة على القول بأن الايمان يزيد وينقص ونقل بعض الروايات والآيات في ذلك ثم أورد عن شيخ الاسلام تفصيلا لوجوه الزيادة ولأصل الخلاف في المسألة وانما نورد من ذلك ما عدا الروايات عن السلف في المسألة ثم نبين وجه العبارة في ذلك لطلاب علوم الدين قال والظاهر انه من كلام شيخ الاسلام :

«والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات كقوله (انما المؤمنون اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون) قال شيخ الاسلام وهذا امر يجده المؤمن اذا تليت عليه الآيات ازداد قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الايمان ما لم يكن حتى كانه لم يسمع الآية الا حينئذ ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرغبة من الشر ما لم يكن فيزداد علمه بالله ومحبه لطاعته وهذا زيادة الايمان وقال تعالى (الذين قال لهم ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) فبهذه الزيادة عند نحو يفهم بالمدوم يمكن عند آية نزلت فازدادوا يقينا وتوكلوا على الله وثباتا على الجهاد وتوحيدنا بان لا يخافوا المخلوق بل يخافون الله الخالق وحده وقال تعالى (واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول انكم زادته هذه ايمانا) وهذه الزيادة ليست بمجرد التصديق بان الله أنزلها بل زادتهم بحسب مقتضاها فان كانت أمرا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة فيه وان كانت نبيا عن شيء اتقوا عنه فكهروه ولهذا قال (وهم يستبشرون) والاستبشار غير مجرد التصديق وقال تعالى (وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا) وهذه نزلت لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية وأصحابه فجعل السكينة موجبة لزيادة الايمان والسكينة هي طمأنينة في القلب وقوله تعالى (يهد قلبه) هداة لقلبه وزيادة في ايمانه كما قال تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقال

(انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)

قال شيخ الاسلام قدس الله روحه زيادة الايمان التي أمر الله به والذي يكون من عبادة المؤمنين من وجوه (أحدها) الاجمال والتفصيل فيما أمروا به فانه وان وجب على جميع الخلق الايمان بالله ورسوله ووجب على كل امة التزام ما يأمر به رسولهم مجالا فمعلوم انه لا يجب في أول الامر ما وجب بعد نزول القرآن كله ولا يجب على كل عبد من الايمان المنفصل بما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره فمن عرف القرآن والسنة ومعانيها لزمه من الايمان المنفصل بذلك ما لم يلزم غيره ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطنا وظاهرا ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمنا بما وجب عليه من الايمان وليس ما وجب عليه ولا ما وقع منه مثل ايمان من عرف الشرائع فأمن بها وعمل بها بل ايمان هذا أكل وجوبا ووقوعا فان ما وجب عليه من الايمان أكل وما وقع منه أكل وقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) أي في التشريع بالامر والنهي لان كل واحد من الأمة وجب عليه ما يجب على سائر الأمة وانه فعل ذلك بل الناس متفاضلون في الايمان أعظم تفاضل

﴿ الثاني ﴾

الاجمال والتفصيل في ما وقع منهم فمن طلب علم التفصيل وعمل به فإيمانه أكل من عرف ما يجب عليه والتزمه وأقر به ولم يعمل بذلك كله وهذا المقر المتقصر في العمل ان اعترف بذنبه وكان خائفا من عقوبة ربه على ترك العمل أكل ايمانا ممن لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول ولا عمل بذلك ولا هو خائف ان يعاقب بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول مع انه مقر بنبوته باطنا وظاهرا فكلمها عمل القلب بما أخبر به الرسول فصدقه وما أمر به فالتزمه كان ذلك زيادة في ايمانه على من لم يحصل له ذلك وان كان معه اقرار عام والزام وكذلك من عرف اسماء الله تعالى ومعانيها فأمن بها كان ايمانه أكل ممن لم يعرف تلك الاسماء بل آمن بها ايمانا مجملا أو عرف بعضها وكلمها ازداد الانسان معرفة باسماء الله تعالى وصفاته وآياته كان ايمانه أكل

﴿ الثالث ﴾

ان العلم والتصديق يكون بعضه أقوى من بعض واثبت وأبعد عن الشك والريب وهذا أمر يشهد به كل واحد من نفسه كما ان الحس الظاهر بالشيء الواحد مثل رؤية الناس الهلال وان اشتركوا فيها فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض وكذلك سماع الصوت وشم الرائحة الواحدة وذوق النوع الواحد من الطعام فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة للمعاني التي يؤمن بها من معاني اسماء الله تعالى وكلامه يتفاضل الناس في معرفتها أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها

﴿ الرابع ﴾

ان التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به واذا كان شخصان يعلمان ان الله حق والرسول حق والجنة حق والنار حق وهذا عليه أوجب له محبة الله وخشيته والرغبة في الجنة والهروب من النار والآخرة علمه لم يوجب له ذلك فلم الاول أكمل فان قوة المسبب تدل على قوة السبب وقد نشأت هذه الامور عن العلم فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه فاذا لم يحصل اللازم دل على ضعف المزموم ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم «ليس الخبير كالمعاينة» فان موسى عليه السلام لما أخبره ربه ان قومه عبدوا العجل لم يلق الا لوح فلما رام قد عبده ألقاها وليس ذلك لشك موسى في خبر الله لكن الخبير وان جزم بتصديق الخبير فقد لا يتصور الخبير به في نفسه كما يتصوره اذا عاينه بل قد يكون قلبه مشغولا عن تصور الخبير به وان كان مصدقاً به ومعلوم انه عند المعاينة يحصل له من تصور الخبير ما لم يكن عند الخبير فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق

﴿ الخامس ﴾

ان اعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله وخشية الله تعالى ورجائه ونحو ذلك هي كلها من الايمان كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف وهذه يتفاضل

الناس فيها تفاضلاً ظاهراً

﴿السادس﴾

الأعمال الظاهرة مع الباطنة هي أيضاً من الايمان والناس يتفاضلون فيها

﴿السابع﴾

ذكر الانسان بقلبه ما أمر به واستحضاره بحيث لا يكون غافلاً عنه أو كمل
من صدق به وغفل عنه فان النملة تنقصه وكال العلم والتصديق والذكر والاستحضار
يكمل العلم واليقين ولهذا قال عمير بن حبيب رضي الله عنه اذا ذكرنا الله وحمدناه
وسبحناه فقلك زيادته واذا غفلنا ونسينا وضيعنا فقلك نقصانه

﴿الثامن﴾

قد يكون الانسان مكذباً ومنكراً لأمور لا يعلم ان الرسول أخبر بها وأمر بها ولو علم
ذلك لم يكذب ولم ينكر بل قلبه جازم بانه لا يخبر الا بصدق ولا يأمر الا بحق ثم
يسمع الآية والحديث أو يتدبر ذلك أو يفسر له ممناه أو يظهر له ذلك بوجه من
الوجوه فيصدق بما كان مكذباً به ويعرف ما كان منكراً له وهذا تصديق جديد
وايمان جديد ازداد به ايمانه ولم يكن قبل ذلك كافراً بل جاهلاً وهذا وان أشبه
الجهل والمفصل لكن صاحب الجهل قد يكون قلبه سليماً عن تكذيب وتصديق
شيء من التفاصيل وعن معرفة وانكار شيء من ذلك فيأتيه التفصيل بعد الاجمال
على قلب ساذج وأما كثير من الناس بل من أهل العلم والعبادة فيقوم بقولهم
من التفصيل أمور كثيرة تخالف ما جاء به الرسول وهم لا يعرفون انها تخالف فاذا
عرفوا رجعوا وكل من ابتدع في الدين قولاً أخطأ فيه وهو مؤمن بالرسول أو
عمل عملاً أخطأ فيه وهو مؤمن بالرسول أو عرف ما قاله وآمن به لم يبدل عنه هو
من هذا الباب وكل مبتدع قصده متابعة الرسول فهو من هذا الباب فمن علم ما جاء به
الرسول وعمل به أو كمل ممن أخطأ ذلك ومن علم الصواب بعد الخطأ وعمل به فهو
أو كمل ممن لم يكن كذلك

اذا علمت هذا فاعلم أن مذهب سلف الامة وجلس الائمة ان الايمان قول

وعمل ونية يريد بالطاعة وينقص بالمعصية قال الامام ابن عبد البر في التمهيد
 أجمع أهل الفقه والحديث على أن الايمان قول وعمل ولا عمل الا بنية قال
 والايمنان عندهم يريد بالطاعة وينقص بالمعصية والطاعات كلها عندهم ايمان الا
 ما ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه فانهم ذهبوا الى أن الطاعات لا تسمى ايمانا
 قالوا انما الايمان التصديق والاقرار ومنهم من زاد المعرفة وذكر ما احتجوا به الى
 ان قال وأما مائثر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام
 ودمر منهم مالك بن أنس واليث بن سعد وسفيان الثوري والأوزاعي
 والثانسي وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام
 وداود بن علي والطبري ومن سلك سبيلهم قالوا الايمان قول وعمل قول باللسان
 وهو الاقرار واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح مع الاخلاص بالنية الصادقة وقالوا
 كل ما يطاع الله به من فريضة ونافقة فهو من الايمان قالوا والايمنان يريد
 بالطاعات وينقص بالمعاصي قال وأهل الذنوب عندهم مؤمنون غير مستكلمي
 الايمان من أجل ذنوبهم وأما صاروا ناقصي الايمان بارتكابهم الكبائر الأتري
 الى قوله صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » الحديث يريد
 مستكمل الايمان ولم يرد به نفي جميع الايمان عن فاعل ذلك بدليل الاجماع على
 توريث الزاني والسارق وشارب الخمر اذا صلوا الى القبلة وانقطعوا دعوة للمسلمين من
 قراباتهم المؤمنين الذين ليسوا بتلك الأحوال ثم قال وعلى ان الايمان يزيد وينقص
 يريد بالطاعة وينقص بالمعصية جماعة أهل الآثار والفقهاء أهل الفيا في الامصار وهذا
 مذهب الجماعة من أهل الحديث والحمد لله

ثم رد على المرجئة على الخوارج والمعتزلة بالوارثة ومحدث عبادة بن الصامت « من
 أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة » وقال الايمان مراتب بعضها
 فوق بعض فليس ناقص الايمان ككامله قال الله تعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر
 الله وجلت قلوبهم واذا نلت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون) الى قوله (حقا)
 أي هم المؤمنون حقاً ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث « أكمل المؤمنين
 ايمانا » ومعلوم أن هذا لا يكون إلا كل جني يكون غيره أتقص وقوله « أوثق عرى

الايمان الحب في الله» وقوله «لا ايمان لمن لا امانة له» يدل على ان بعض الايمان أوثق وأكمل من بعض وكذلك ذكر أبو عمر الطائفي اجماع أهل السنة على ان الايمان قول وعمل ونية قال الامام شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه لما حنف الفخر الرازي مناقب الامام الشافعي رضي الله عنه ذكر قوله في الايمان انه قول باللسان وعقد بالجنان وعمل بالاركان كقول الصحابة والتابعين وقد ذكر الامام الشافعي انه اجماع من الصحابة والتابعين ومن اتى به استشكل الرازي قول الامام الشافعي جدا لانه كان يعتقد في نفسه شبهة أهل البدع في الايمان من الخوارج والمعتزلة والجهمية والكرامية وسائر المرجئة وهوان الشيء المركب اذا زال بعض أجزائه لزم زواله كله لكن هو لم يذكر الا ظاهر شبهتهم قال شيخ الاسلام والجواب عما ذكره سهل فانه يسلم له ان الهيئة الاجتماعية لم تبقى مجتمعة كما كانت لكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الاجزاء يعني كبدن الانسان اذا ذهب من اصبع أو بدأ رجل ونحوه لم يخرج عن كونه انسانا بالاتفاق وإنما يقال له انسان ناقص والشافعي مع الصحابة والتابعين وسائر السلف يقولون ان الذنب يقدح في كمال الايمان ولهذا نفي الشارع الايمان عن هؤلاء يعني عن الزاني والسارق وشارب الخمر ونحوهم فذلك المجموع الذي هو الايمان لم يبق مجموعا مع الذنوب لكن يقولون بقي بعضه اما أصله واما أكثره واما غير ذلك فيعود الكلام الى انه يذهب بعضه ويبقى بعضه ولهذا كانت المرجئة تنفر من لفظ النقص أعظم من نفورها من لفظ الزيادة لانه اذا نقص لزم ذهابه كله عندهم ان كان متبعضا متعددًا عندهم يقول بذلك وهم الخوارج والمعتزلة واما الجهمية فهو واحد عندهم لا يقبل التعدد فيثبتون واحدا لا حقيقة له كما قالوا مثل ذلك في وحدانية الرب عز وجل ووحدانية صفاته عندهم من أثبتها منهم

قال شيخ الاسلام روح الله روحه ومن العجب ان الاصل الذي أوقفهم في هذا اعتقادهم انه لا يجتمع في الانسان بعض الايمان وبعض الكفر أو هو ايمان وما هو كفر واعتقدوا ان هذا متفق عليه بين المسلمين كما ذكر ذلك أبو الحسن الأشعري وغيره ولا جل اعتمادهم هذا الاجماع وقصوا في ما هو مخالف للاجماع الحقيقي اجماع السلف الذي ذكره غير واحد من الأئمة بل وصرح غير واحد بكفر من قال بقول جهم في الايمان ولهذا نظائر متعددة يقول الانسان قولًا مخالفًا للنص

والاجماع القديم متينة ويكفون معتقدا انه متمسك بالنص والاجماع وهذا اذا كان مبلغ تلمذ واجتهاده فالله يشبهه على ما أطاع الله فيه من اجتهاده ويغفر له ما عجز عن معرفته من الصواب الباطن (قال شيخ الاسلام) وقد قال لي بعضهم مرة الايمان من حيث هو ايمان لا يقبل الزيادة والنقصان فقلت له قولك من حيث هو كقولك من حيث هو انسان ومن حيث هو حيوان ومن حيث هو وجود فتثبت لهذه التسميات وجودا مطلقا مجردا عن جميع القيود والصفات وهذا لا حقيقة له في الخارج وانما هو شيء يقدره الانسان في ذهنه كما يقدر موجودا لا قديما ولا حادثا ولا قائما بنفسه ولا بغيره والماهيات من حيث هي هي شيء يقدر في الازهان لا في الاعيان وهكذا تقدير ايمان لا يتصف به مؤمن بل هو مجرد عن كل قيد بل ماثم ايمان في الخارج الا مع المؤمنين كما ماثم انسانية في الخارج الا ما انصف بها الانسان فكل انسان له انسانية تخصه وكل مؤمن له ايمان يخصه فانسانية زيد تشبه انسانية عمرو وليست هي والاشترك انما هو في أمر كلي مطلق يكون في الذهن ولا وجود له في الخارج الا في ضمن افراده فاذا قيل ايمان زيد مثل ايمان عمرو فإيمان كل واحد يخصه معين وذلك الايمان يقبل الزيادة والنقصان ومن نفي التفاضل انما يتصور في نفسه ايمانا مطلقا كما يتصور انسانا مطلقا عن جميع الصفات المميّنة له ثم يظن ان هذا هو الايمان الموجود في الناس وذلك لا يقبل التفاضل بل لا يقبل في نفسه التعدد اذ هو تصور معين قائم في نفس متصوره ولهذا يظن كثير من هؤلاء ان الامور المشتركة في شيء واحد هي واحدة في الشخص والعين حتى انتهى الامر بطائفة من علمائهم علما وعبادة الى ان جعلوا الوجود كذلك فتصوروا ان الموجودات مشتركة في معنى الوجود وتصوروا هذا في أنفسهم فظنوه في الخارج كما هو في أنفسهم ثم ظنوا انه الله تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا فجعلوا رب العالمين هو هذا الوجود الذي لا يوجد قط الا في نفس متصوره لا يكون في الخارج أبدا وهكذا كثير من الفلاسفة تصوروا مادا مجردة وحقائق مجردة ويسمونها مثل الافلاطونية وزمانا مجردا عن الحركة والتحرك وبدا مجردا عن الاجسام وصفاتها ثم ظنوا وجود ذلك في الخارج وهو لاء كلهم اشتبه عليهم ما في الازهان

بما في الاعيان وتولد من هذا بدع ومفاسد كثيرة والله المستعان
وقال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري ذهب السلف الى ان الايمان
يزيد وينقص وأنكر ذلك أكثر المتكلمين قال الامام النووي والظاهر المنحاز
ان التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة ولهذا كان ايمان
الصديق أقوى من ايمان غيره بحيث لا تعتبره الشبهة وقال يزيد ان كل
واحد يعلم ان ما في قلبه يتفاضل حتى انه يكون في بعض الاحيان أعظم يقينا واخلاصا
وتوكلا منه في بعضها وكذلك في التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين
وكثرتها وما نقل عن السلف يعني ان الايمان يزيد وينقص صرح به عبد الرزاق
في مصنفه عن سفیان الثوري ومالك بن أنس والاوزاعي وابن جريج ومعمر
وغيرهم وهو لاء قتها الامصار في عصرهم وكذا نقله أبو القاسم اللالكائي في
كتاب السنة عن الشافعي وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وأبي عبيد وغيرهم
من الأئمة ويروى بسند صحيح عن البخاري قال لقيت أكثر من ألف رجل من
العلماء بالامصار فما رأيت أحدا منهم يختلف ان الايمان قول وعمل ويزيد وينقص
وأظن ابن أبي حاتم واللالكائي في نقل ذلك بالاسانيد عن جمع كثير من
الصحابة والتابعين وكل من يدور عليه الاجماع من الأئمة وحكاة فضيل بن عياض
ووكيع عن أهل السنة وقال الحاكم في مناقب الامام الشافعي ثنا أبو العباس
الاحم أنا الربيع قال سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول الايمان قول وعمل ويزيد
وينقص وأخرجه أبو نعيم في ترجمة الشافعي من الحلية من وجه آخر عن الربيع وزاد
يزيد بالطاعة وينقص بالمصيبة وتلا (ويرداد الذين آمنوا ايماننا) الآية انتهى وقد
روى الامام أحمد في المسند من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعا
«الايمان يزيد وينقص» وأخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة
رضي الله عنه مرفوعا أيضا والآثار عن الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة الدين
من أهل السنة والجماعة المعتبرين وأئمة أهل الحديث وأعلام علماء الصوفية أكثر من
أن تذكر بأن الايمان قول باللسان وعقد بالجان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة
ويضعف بالمصيبة وقد ذكرنا من ذلك ما علمه يحصل به المصود والله ولي الاحسان

• •

(المنار) من أطلع على مثل هذا البيان في المسألة يعلم ان الحق هو ما كان عليه السلف وان من يتصيد المسائل الدينية من الألفاظ من غير اطلاع على السنة النبوية التي سار عليها أهل الصدر الاول فهو عرضة للبدع والأهواء وان زواج شبهة المرجئة والجهمية وغيرهم من المبتدعة في هذه المسألة عند بعض أهل السنة من جهة النظر والفهم قد كان من أسباب هلاك المسلمين بإعراضهم عن هدي الدين ذلك أن الاعتقاد بأن الايمان الذي هو سبب النجاة والسعادة في الآخرة هو التصديق القلبي بأن جميع ما جاء به النبي حق دون العمل وان المؤمنين فيه سواء قد جبر الناس على الفسوق والهميان ، ثم جعلهم على التحريف المعنوي للقرآن ، اذ القرآن يصرح بأن النجاة والسعادة بالايمان والعمل الصالح مما كما ان الهلاك بالكفر والاسترسال في المظالم والمعاصي وآياته في ذلك لا يخص الا بمجهود وعناء وتري أهل هذا المذهب يلتزمون تأويلها حتى صرت ترى الدهماء من المسلمين يعتقدون بان العمل ليس له شأن عظيم في النجاة من عذاب الدنيا والآخرة والتمتع بسعادتهما وإنما يكفي في ذلك التصديق بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ولو اجمالاً ويحملون أكثر نذر القرآن على الكفار ويحملونها خاصة بهم كأن سنة تعالى في هذه الأمة مخالفة لسنة في أمم الانبياء قبلهم وكأن اليقين والاذعان يمكن ان يحصل بدون تأثيره الطبيعي في العمل وذلك محال

وقد نزل بهم من عذاب الله في الدنيا ما حقق نذر كتابه وصدق وعيده فيمن نقض ميثاقه وهم لا يتوبون ولا يذكرون وإنما ميثاقه السمع والطاعة بالعمل وقد قال فيمن قبلهم « ٥ : ١٣ فيما نقضهم ميثاقهم لئلا ينصروا » الآية وفسر ابن عباس اللعن فيها بالجزية أي بفقد الاستقلال ولا يعتبر أكثر المسلمين بذلك وقد فقدوا استقلالهم وصارت الامم تأخذ الجزية منهم والباقيون على استقلالهم معرضة للخطر ثم ان كثيرا من كتابهم يترثرون في دأبهم ودوائهم ويحاولون ان يكونوا من أطبائهم ، وهم يحملون الدواء والدواء لجهلهم بالقرآن الذي هو الشفاء والرحمة لمن اتبعه به فليعتبر بهذا أهل العلم والبصيرة عليهم يكونون من الهادين المتقين